بسم الله الرحمن الرحيم

التدبّر بين النظريّة والتطبيق

أهداف المحاضرة:

نريد من خلال أبحاث هذه المحاضرة أن نتوصّل إلى فهم واضح وتطبيق دقيق لنظريّة التدبّر في القرآن الكريم.

أبحاث المحاضرة:

1- تمهيد: حول العلاقة بالقرآن الكريم.
النقطة الأولى: ضعف التعاطي والتفاعل مع القرآن، ما هي أسبابه؟.
النقطة الثانية: مستويات العلاقة بالقرآن الكريم.

*** المستوى الظاهري.**

*** المستوى اللساني.**

*** المستوى المعرفي.**

*** المستوى التطبيقي.**

2- أنحاء العلاقة المعرفيّة بالقرآن.
أوّلاً: التفسير.
ثانياً: التأويل.
ثالثاً: التدبّر.

- **التدبّر لغةً واصطلاحاً.**
- **الفوارق بين التدبّر المصطلح.. والتفسير والتأويل.**
- **التدبّر المصطلح.. ومساحاته.**
- **المعالم التطبيقيّة لنظريّة التدبّر (التدبّر المصطلح).**
- **بين التدبّر والتفكّر.**

- **لماذا قراءة أخرى؟.**

رابعاً: التعليم القرآني.

1- تمهيد: حول العلاقة بالقرآن الكريم: ونبحث فيها نقطتين:

النقطة الأولى: ضعف التعاطي والتفاعل مع القرآن، ما هي أسبابه؟.

لا شك أنّ هناك ضعفاً وتقصيراً وانكفاءً عند كثير من الناس في التعاطي مع القرآن الكريم، حتّى يكاد أن يدخل في دائرة الإعراض عن القرآن الكريم!.

فما هو السبب لذلك يا ترى؟!.

- **يمكن أن يكون السبب؛** هو الإهمال والتقصير الناشيء من عدم الإحساس بأهميّة القرآن في الحياة!. فكثير من الناس لا يتعاطون مع القرآن إلّا على مستوى القراءة فقط، وفي فترات متباعدة، وأكثر ما يكون ذلك في شهر رمضان، أو في مجالس الفاتحة على الموتى!.

ويكرّس هذا السبب ويبعث على اتّساعه، تقصير العلماء عن القيام بدورهم في تعليم الناس وتثقيفهم بثقافة القرآن، وتنظيم دروس التعليم لمفاهيم القرآن.

- **ويمكن أن يكون السبب؛** عند البعض هو " التهيب " من القرآن الكريم، والتخوّف والتورّع من الاقتحام عليه بما له من تراكيب بليغة، ومعاني عميقة، هي بعيدة عن فهم الكثير من العلماء فضلاً عن عموم الناس.

فكيف ينبغي معالجة الموضوع؟. وكيف يمكن بناء علاقة وثيقة مع القرآن تضمن الحفاظ على دور القرآن الكريم في توجيه الأمة، واستفاد عموم الناس من معارف القرآن وتوجيهاته، وفي نفس الوقت تحافظ على موقعيّة

القرآن وحصانته من أن يقتحمه كلّ أحد؟. خصوصاً مع الالتفات للنصوص الكثيرة الناهية عن تفسير القرآن بالرأي.
وبعبارة أخرى: ما هي الضوابط التي ينبغي الالتزام بها أثناء التعاطي مع القرآن بحيث تضمن تحقيق كلا الغرضين، فتحفظ للقرآن مقامه الرفيع من جهة، وتتكفّل من جهة أخرى؛ التشجيع على التعاطي الجادّ مع القرآن والاستفادة الواسعة منه؟. خصوصاً مع الالتفات للنصوص الكثيرة الحاثّة على التدبّر في القرآن، والاهتداء ببيّناته.

النقطة الثانية: مستويات العلاقة بالقرآن الكريم؛ العلاقة بالقرآن الكريم يمكن أن تكون على أربعة مستويات:

- **المستوى الأوّل: المستوى الظاهري**؛ المتمثّل في التقديس والاحترام للقرآن الكريم، سواء في طريقة حمله، أو في مكان وضعه، والتقبيل والتقديس له. ويدخل في ذلك حرمة لمس كتابته على غير طهارة، واستحباب الطهارة لحمله وقرائته.
- **المستوى الثاني: المستوى اللساني**؛ المتمثّل في الإكثار من قرائته، وتحسين القراءة وتجويدها.
- **المستوى الثالث: المستوى المعرفي**؛ المتمثّل في أنحاء أربعة من العلاقة المعرفيّة؛ التفسير، والتأويل، والتدبّر، والتعليم القرآني.
- **المستوى الرابع: المستوى التطبيقي**؛ بحيث يكون القرآن دستورَ حياة، ومنهجَ حياة، في مختلف جوانب ومساحات الحياة؛ الفرديّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة. ومختلف أبعاد الحياة؛ المعنويّة، والماديّة. وعلاقة الإنسان بنفسه، وعلاقته بربّه، وعلاقته بالمخلوقات.

3- العلاقة المعرفيّة بالقرآن الكريم: ولها أربعة أنحاء؛ التفسير، والتأويل، والتدبّر، والتعليم القرآني.

النحو الأوّل: التفسير؛ من أسفر يسفر؛ أي أظهر يظهر، وكشف يكشف، فالمفسّر هو الذي يكشف عن مرادات القرآن بحسب الطاقة البشريّة العاديّة، ويظهرها بعبارات واضحة يفهمها عموم الناس. والتفسير كما هو واضح ليس في متناول جميع الناس، بل هو مختصّ بالعلماء المتوفّرين على وسائل وآليّات الفهم والكشف عن معاني القرآن ومراداته؛ من قواعد اللغة العربيّة، والمحاورات العرفيّة، وفنون البلاغة، والمنطق، والعقائد، والفلسفة، والفقه، والأصول.. .

النحو الثاني: التأويل؛ من آلَ يأُول، بمعنى يرجع، فالتأويل إذن يتكفّل بيان المرادات الواقعيّة للآيات الشريفة، والمصاديق الحقيقيّة لها. ومن الواضح أنّ التأويل كذلك ليس في متناول عموم الناس، بل ولا جميع العلماء، وإنّما هو مختصّ بالله تعالى، والراسخون في العلم؛ وهم النبي وآله الطاهرين. { ولا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم..}آل عمران/7. وربما فُسّر الراسخون في العلم بما يشمل نخبةً من العلماء المتعمّقين والمتضلّعين في العلم.

النحو الثالث: التدبّر:

- **التدبّر لغةً واصطلاحاً**؛ هو لغةً؛ تفعّل من الدُبُر أي العَقِب، فهو: النظر إلى دُبُرِ الأشياء والأمور والألفاظ والمعاني، أي عواقبها، وما يمكن أن تؤول إليه. وهذا المعنى اللغوي هو معنىً عامٌ وواسعٌ ينسجم مع التفسير والتأويل والتدبّر. وإنّما يتمايز كلّ واحد منهم عن الآخر بلحاظ متعلّق التدبّر. وهذا ما سنبيّنه ضمن الحديث عن التدبّر المصطلح في الفقرة اللاحقة.

التدبّر المصطلح: تعرّفنا في الفقرة السابقة على المعنى اللغوي للتدبّر، وقلنا أنّ له معناً عامّاً ينسجم مع كلٍّ من التفسير والتأويل والتدبّر المصطلح، وإنّما الفرق بينهم في ما هو المتعلَّق للتدبّر. وهنا نبيّن المراد

من ذلك. وبعبارة أخرى: سنبيّن هنا المراد من التدبّر المصطلح، والفرق بينه وبين مصطلح التفسير والتأويل، فنقول:

على نحو الإجمال أوّلاً: التفسير لا يخلو من تدبّر بالمعنى اللغوي؛ ولكن متعلَّق التدبّر فيه هو عواقب (الألفاظ) وما يمكن أن تؤول إليه من معاني وراء المعنى الظاهري البسيط. والتأويل كذلك هو نحوٌ من التدبّر؛ ولكن متعلَّق التدبّر فيه هو عواقب (المعاني) وما يمكن أن تؤول إليه من مصاديقَ وحقائقَ واقعيّة.

أمّا التدبّر المصطلح؛ فمتعلّق التدبّر فيه هو عواقب (المعاني) وما يمكن أن تؤول إليه، وما يمكن أن يترتّب عليها من آثار ونتائج على نفسيّة المتدبّر وسلوكه.

فاتضح ممّا تقدّم أنّ التدبّرَ لغةً معنىً عامٌ يشمل ويدخل في المصطلحات الثلاثة، أعني؛ التفسير والتأويل والتدبّر المصطلح.

أمّا التدبّر اصطلاحاً؛ فهو يختلف عنهما؛ **أوّلاً: من حيث متعلّق التدبّر كما عرفت.**

وثانياً من حيث بعض الفوارق التفصيليّة: فللتدبّر فوارق متعدّدة تميّزه عن التفسير والتأويل، وهي كما يلي:

الفارق الأوّل: من حيث الوضوح والأهميّة؛ فالتدبّر حقيقة قرآنيّة واضحة، ومسؤوليّة إيمانيّة (بل إنسانيّة) قاطعة. فلا يتردّد أحد في كون التدبّر من الحقائق القرآنيّة الواضحة والمتسالم على أهمّيتها، وأنّها مسؤوليّة على عاتق كلّ مسلم، بل كلّ إنسان، وأنّه لا خير في قراءة للقرآن بدونه.

قال تعالى: { كتابٌ أنزلناه إليك مباركٌ ليدَّبروا آياته وليتذكَّر أولو الألباب }ص/29. وقال سبحانه: { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا }محمد/24. وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنّ قال:

" تدبّروا آيات القرآن واعتبروا به، فأنّه أبلغ العبر ". وقال عليه السلام: " ألَا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر ".

بخلاف التفسير؛ فهو مسألة جدليّة؛ حيث وقع خلاف بين علمائنا في قضيّة تفسير القرآن، وهل أنّه أمر متاح للعلماء، أم هو مخصوص بأئمة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام؟!.

وبعبارة أخرى: وقع كلام بين الأعلام حول حجيّة ظاهر القرآن، بمعنى أنّ ما يستفيده الفقيه المفسّر، ويستظهره من كلام الله تعالى، هل هو حجّة بين العبد وربّه، ويصلح أن يكون دليلاً على الحكم الشرعي، ومَدرَكاً على المعرفة القرآنيّة بصورة عامّة؟، أم أنّه لا حجيّة له ما لم يُسْتَفَدْ ويُؤخَذ من كلام المعصوم عليه السلام، حيث أنّه عليه السلام القادر حصراً على فهم مرادات القرآن؟.

ولكن الرأي الراجح عند أكثر علماء الطائفة أنّ فهم القرآن ومراداته الظاهرة متاح للعلماء، وهي حجّة، ولكن بشرائط متعدّدة، من ضمنها ضرورة مراجعة كلام المعصومين عليهم السلام، فإن كان لهم كلام ثابت بطريق معتبر لزم الأخذ به، أو لا أقل ملاحظته في مقام فهم مرادات القرآن، وإن لم يكن لهم كلام كذلك، جاز الاعتماد على القواعد اللغويّة والعقليّة والعرفيّة في فهم ظواهر الكتاب العزيز. وللبحث عن أصل جواز التفسير، وحجيّة ظواهر القرآن، والشرائط المعتبرة فيه، محلّ آخر.

أمّا التأويل، فهو أكثر جدليّةً؛ والأكثر من علمائنا - إن لم يكن الإجماع قائماً - على اختصاصه بالأئمة الأطهار عليهم السلام. قال تعالى: { ..وما يعلم تأويلَهُ إلّا اللهُ والراسخونَ في العلم.. }آل عمران/7. بناءً على جعل (الواو) في الآية عاطفة لا استئنافيّة، وتفسير (الراسخون في العلم) بالأئمة الأطهار عليهم السلام، وتفصيل ذلك في محلّه.

الفارق الثاني: من حيث الغاية من التدبّر؛ فإنّ الغاية منه هو الاتعاظ والاعتبار والاتباع، والآية الأولى والرواية الأولى المتقدمتين واضحة في ذلك، وكذلك قوله تعالى: { وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }الأنعام/155. وقوله سبحانه: { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ }القمر/17.

بينما الغاية من التفسير هو البيان والكشف عن معاني القرآن والشرح لها. والغاية من التأويل هو بيان المصاديق الواقعيّة لحقائق القرآن.

الفارق الثالث: من حيث طبيعة التدبّر البسيطة؛ فهو ممارسة سهلة وبسيطة، لا تحتاج لأكثر من الفهم العام والبسيط للآية، الذي يحصل عادة بفهم المعنى اللغوي، والمعنى السياقيّ العام. ولذلك نجد هذا التأكيد الواسع على التدبّر بحيث جُعِل في النصوص لازماً لقراءة القرآن، فلا خير فيها بدونه، ولازماً للقلب السليم المنفتح، وبدونه يكون القلب معطوباً مقفلاً، قال تعالى: { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا }محمد/24. فالتدبّر عبارة أخرى عن فتح القلب لتقبّل المواعظ الإلهيّة الهادية، والحقائق الربّانيّة الواضحة. فهو بمثابة أن يفتح الإنسان عينه لمشاهدة ما حوله، والاصغاء لسماع الكلام وفهمه. ولا يتوقّف أبداً على الفهم التفصيلي لأقوال المفسرين، والغوص في دقائق كتب التفسير، وإلّا صار التدبّرُ مسؤوليّةَ فئة خاصّة!. والحال أنّه مسؤوليّة عموم المؤمنين وإن لم يكونوا من العلماء والمثقّفين، بل عموم النّاس!.

فالتدبّر إذن؛ هو حالة بسيطة واضحة وضروريّة لكلّ قارئ للقرآن، وبدونه تفقد القراءة قيمتها، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: " ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر "، تماماً كما قال في العبادة بدون تفقّه؛ " ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقّه ". فالتدبّر بالنسبة لقراءة القرآن، كالتفقّه بالنسبة للعبادة.

نعم، لا شكّ أنّ التدبّر يتأثّر بمستوى الفهم، وسعة الاطلاع، فكلّما ازداد الفهم واتسع الاطلاع، كلّما اتسع التدبّر وزاد الاعتبار.

أمّا التفسير - فضلاً عن التأويل - فهو ممارسة دقيقة ومعقّدة، تحتاج لشرائط ومؤهلات كثيرة قد لا تتوفّر لكثير من العلماء، فضلاً عن عموم الناس. وبدون هذه الشرائط والمؤهلات قد يقع الإنسان في محذور التفسير بالرأي المذموم عند جميع المسلمين، أو التأويل كذلك.

فلكي لا يتحوّل التدبّر إلى تفسير، والتفسير إلى تفسيرٍ بالرأي، أو تأويل، لا بدّ من الإلتفات للفوارق الدقيقة بين هذه المصطلحات، وكذلك الالتفات للاشتراطات المأخوذة فيها، وكذلك لا بدّ من التروّي والتأنّي والاحتياط في التعاطي مع القرآن، والتواضع بين يدي القرآن، وعدم الاقتحام عليه انطلاقاً من القناعات القبليّة، وعدم طرح النتائج التي ربما حَصَلَتْ من التدبّر على أنّها حقائق قرآنيّة، بل لا بدّ من عرضها على أهل الخبرة والاختصاص، وعدم الاستعجال في نسبتها للقرآن. وهذا ما لعلّنا نبحثه بصورة أوسع عند الحديث عن التفسير بالرأي.

الفارق الرابع: من حيث أنّ التدبّر ليس فعلاً بل انفعال؛ فهو حالة من تأثّر النفس وانفعالها بتوجيهات القرآن واتّباعها له، والاستسلام لأحكامه. ويقابل ذلك النكوص والجحود والتمرّد والعصيان!. إذن التدبّر نحوٌ من المحاسبة والمراقبة والتوجيه للنفس في ضوء القرآن.

فالنتيجة المطلوبة من التدبّر هي الاتّباع للمعاني القرآنية الواضحة، والتقوى تجاه الزواجر القرآنية الصريحة، وليس المطلوب إنتاج معنى جديد!. قال تعالى: {وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }الأنعام/155. وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: " تدبّروا آيات القرآن واعتبروا به، فأنّه أبلغ العبر ".

وبعبارة أخرى؛ إنّ المطلوب من التدبّر أن يخرج الإنسان من دائرة الصَدْف عن آيات الله، وقفل القلب أمام هدى القرآن، قال سبحانه: { أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ }الأنعام/157.

والذي يقابل الصَدْف عن آيات الله، هو الالتفات للآيات والأخذ بها والاتّباع لها، وليس استكشافَ معانيها.

وقال عزّ وجلّ: { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا }محمد/24. فالمقابل للتدبّر - حسب الآية - هو قفل القلب أمام القرآن، وهو عبارة أخرى عن الصَدْف عن آيات الله. فالتدبّر إذن هو عبارة أخرى عن الالتفات، وفتح القلب لاستقبال توجيهات القرآن.

والحاصل: إنّ المتدبّر ينظر إلى الآيات القرآنية الشريفة باعتبارها دواءً لأمراض نفسه، وعلاجاً لها من أسقامها، ويتفاعل مع ذلك بكلّ صدق. يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المتّقين: " ..أمّا الليل فصافّون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتّلونه ترتيلا، يحزّنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم. فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلّعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنّوا أنّها نصب أعينهم. وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنّوا أنّ زفير جهنّم وشهيقها في أصول آذانهم.. ".

وفي المنقول من سيرة الإمام الرضا عليه السلام: " كان الرضا عليه السلام - في طريق خراسان - يكثر بالليل في فراشه من تلاوة القرآن، فإذا مر بآية فيها ذكر جنّة أو نار بكى وسأل الله الجنة وتعوذ به من النّار ".

فالقرآن طبيب يُتَعَالج عنده، وإمام يُؤتَمّ به، وقائد يُتَّبع. جاء في خطبة للإمام علي عليه السلام في وصف القرآن: " واعلموا أنّه ليس على أحد بعد

القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم، فإنّ فيه شفاءً من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغي والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه، إنّه ما توجه العباد إلى الله بمثله ".

وقال عليه السلام كذلك في وصف القرآن: " ..فجعله الله نوراً يهدى للتي هو أقوم وقال: { فإذا قرأناه فاتبع قرآنه }، وقال: { اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون }، وقال: { فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنّه بما تعملون بصير }، ففي اتباع ما جاءكم من الله الفوز العظيم، وفي تركه الخطأ المبين، قال: { إمّا يأتينكم منّي هدى فمن اتّبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى }، فجعل في اتباعه كلّ خير يُرجى في الدنيا والآخرة، فالقرآن آمرٌ وزاجر، حَدَّ فيه الحدود، وسَنَّ فيه السُنَن، وضرب فيه الأمثال، وشرع فيه الدين، إعذرا (هكذا في النسخ، ولعلّ الصحيح: إعذاراً) أمر نفسه، وحجةً على خلقه، أخذ على ذلك ميثاقهم، وارتهن عليه أنفسهم، ليبين لهم ما يأتون وما يتقون، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، وإنّ الله سميع عليم ".

وقال عليه السلام كذلك في وصف القرآن: " جعله الله ريّاً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجاً لطرق الصلحاء، ودواءً ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعاً ذروته، وعزاً لمن تولاه، وسلماً لمن دخله، وهدًى لمن أئتم به، وعذراً لمن انتحله، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفَلَجاً لمن حاج به، وحاملاً لمن حمله، ومطيةً لمن أعمله، وآيةً لمن توسّم، وجُنَّةً لمن استلام، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى ".

وقال عليه السلام: " واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادةٍ في هدى، أو نقصانٍ من عمى ".

وعن الإمام الصادق عليه السلام: " إنّ هذا القرآن فيه منار الهدى، ومصابيح الدجى، فليُجِلْ جالٍ بصره، ويفتح للضّياء نظره، فإنّ التفكّر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنّور ".

ومن أدعيته عليه السلام عند افتتاح قراءة القرآن: " اللهم إنّي أشهد أنّ هذا كتابك المنزل من عندك على رسولك محمّد بن عبد الله، وكلامك الناطق على لسان نبيّك، جعلته هادياً منك إلى خلقك، وحبلاً متّصلاً فيما بينك وبين عبادك، اللهم إنّي نشرتُ عهدك وكتابك، فاجعل نظري فيه عبادة، وقراءتي فيه فكراً، وفكري فيه اعتباراً، واجعلني ممّن اتّعظ ببيان مواعظك فيه، واجتنب معاصيك، ولا تطبع عند قراءتي علي سمعي، ولا تجعل على بصري غشاوة، ولا تجعل قراءتي قراءة لا تدبّر فيها، بل اجعلني أتدبر آياته وأحكامه، آخذاً بشرايع دينك، ولا تجعل نظري فيه غفلة، ولا قراءتي هذراً، إنّك أنت الرؤف الرحيم) ".

ومن ما يدل على أهميّة التدبّر في القرآن، وتيسيره لكلّ النّاس، قوله تعالى: { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ }، وتكررها أربع مرّات في سورة القمر.

بخلاف التفسير والتأويل؛ فإنّهما فعل وإنتاج للمعرفة في ضوء القرآن، وضمن شرائطَ محدّدة، وآلياتٍ معروفة، فهو مخصوص بمن توفّر على هذه الشرائط والاليّات.

والحاصل: في ضوء ما تقدّم اتضح أنّ هناك فوارقَ دقيقةً ومهمّةً بين التدبّر المصطلح؛ أي التدبّر الوارد في الآيات القرآنيّة الكريمة، والأحاديث الشريفة، من جهة، والتفسير والتأويل من جهة أخرى. وعليه فلا يصحّ أن

يُتَّخَذَ من التدبّر المصطلح حجّة ومبرّراً للخوض في تفسير القرآن، واعتماده منهجاً لذلك.

- **التدبّر المصطلح.. ومساحاته:**

واتضح ممّا تقدّم كذلك أنّ التدبّر المصطلح؛ الذي يمثّل مسؤوليّةً عامّة، وواجباً على جميع الناس، له مساحات معيّنة في القرآن الكريم؛ وهي مساحة الآيات القرآنيّة الواضحة الدلالة، ذات البعد التوجيهي تحذيراً وترغيباً. لا مساحة الآيات الغامضة المرتبطة بالحقائق الكونيّة، أو المعارف الإلهيّة، أو الأحكام الشرعيّة، التي تحتاج إلى دراسة معمّقة، واستدلال دقيق.

فتقسيم آيات القرآن الكريم بلحاظ كيفيّة التعاطي معها فهماً وتدبّراً، أمر لا مناص منه عقلاً، وهو ما دلّت عليه النصوص أيضاً. فقد جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: " ثمّ إنّ الله جلّ ذكره.. قسّم كلامه ثلاثة أقسام: فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لا يعرفه إلا من صفا ذهنه، ولطف حسّه، وصحّ تمييزه، ممن شرح الله صدره للإسلام، وقسماً لا يعرفه إلا الله وأمناؤه الراسخون في العلم..).

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام: " كتاب الله عزّ وجلّ على أربعة أشياء: على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء).

فبحسب هذا التقسيم للقرآن وآياته؛ فالتدبّر المصطلح الذي هو مسؤوليّة جميع المؤمنين، بل جميع الناس، إنّما يتحرّك في دائرة القسم الأوّل من الاقسام الثلاثة في رواية أمير المؤمنين عليه السلام، والشيء الأوّل من الأشياء الأربعة في رواية الإمام زين العابدين عليه السلام.

- **المعالم التطبيقيّة لنظريّة التدبّر:**

التدبّر؛ ليس رؤيةً نظريّة مجرّدة، ولا موقفاً تطبيقيّاً مرتجلاً، بل هو نظريّة متكاملة؛ لها مميّزاتها النظريّة، ومعالمها التطبيقيّة. وفي ما تقدّم عرضنا للمعالم النظريّة للتدبّر، وهنا نشير للمعالم التطبيقيّة لهذه النظريّة القرآنيّة.

المَعْلَم الأوّل: نظريّة التدبّر؛ هي تعبير وانعكاس وتجلّي للمنظومة المعرفيّة الإسلاميّة، في بعدها العقائدي الفكري، والسلوكي العملي، في القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم يطرح بصورة سهلة بسيطة المكوّنات الأساسيّة للعقيدة الإسلامية؛ كالتوحيد وتجلّياته المختلفة؛ كالخالقيّة، والرازقيّة، والتدبير، والعلم الإلهي المطلق، والقدرة الإلهيّة المطلقة، والرحمة الإلهيّة الواسعة، والعدل الإلهي، وغيرها من الصفات الإلهيّة المبيَّنة في القرآن بصورة واضحة يراها كلّ ذي قلب وعقل مفتوح.

ويطرح كذلك الرسالة والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، وتجلّيات الولاية الربّانيّة، والحكومة الإلهيّة، ضمن حركة دعوة وجهاد الأنبياء والرسل وأوصيائهم.

وتكتمل الأبعاد العقائديّة للنظريّة الإسلاميّة، بالتركيز على عقيدة الحياة الآخرة، والحساب والثواب والعقاب، والجنّة والنّار، وغير ذلك من تجلّيات الحياة الآخرة، وحضور كلّ ذلك وتأثيره في حياة الإنسان.

وكذلك يطرح القرآن الكريم الإطار العام للعلاقة العمليّة بين العبد وربّه؛ وهو العبوديّة، وتجلّيات هذه الحقيقة فطريّاً، وعقلائيّاً، وعمليّاً.

وكذلك يطرح بصورة واضحة وعمليّة المكوّنات الأساسيّة للنظريّة الأخلاقيّة والتربويّة في الإسلام؛ كالأخوّة الإيمانيّة، والأمر بالعدل والإنصاف والإحسان، وتقبيح الظلم والبغي بكلّ مستوياته والنهي عنه،

والدعوة للتقوى، والصدق، والأمانة، والتعاون، وغيرها من مكوّنات البناء النفسي والأخلاقي للأفراد، والبناء الاجتماعي للمجتمعات.

كلّ هذه المعاني تجدها في القرآن بصورة واضحة، ولا تحتاج سوى لفتح القلب والإصغاء لبيانات وتوجيهات القرآن والتأثّر والاعتبار بها، والانصياع لها. وليس ذلك إلّا التدبّر.

المَعْلَم الثاني: التدبّر؛ تعبير عن حالة التعلّق والارتباط بالله تعالى المُنْزِل للقرآن، من هنا فللتدبّر حضوره في الآيات المتضمنّة للدعاء والمناجاة، وكذلك الآيات المرغّبة في ثوابه تعالى، والمحذّرة من عقابه.

المَعْلَم الثالث: التدبّر مُتَعَلَّقَه القرآنُ، فلا بدّ أن يسهم في إدراك عظمته، وأنّه كلام الله المنزّه من كلّ نقص وعيب، ولا يشبهه كلام غيره تعالى أبداً. قال تعالى: { أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا }النساء/82.

وكذلك لا بدّ أن يسهم التدبّر في خشوع القلب عند قراءة القرآن لما فيه من تجلّيات الحقّ، ونفحات الصدق، قال سبحانه: { لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيته خاشعاً مُتَصَدِّعاً من خشيةِ اللهِ وتِلْكَ الأمثالُ نَضْرِبُها للناس لعلّهم يتفكّرون }الحشر/21. وورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: " إنّ الله تعالى تجلّى للناس في كلامه، ولكنّهم لا يرون ". وعن الإمام عليّ عليه السلام: " فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه ".

المَعْلَم الرابع: التدبّر في العناوين العامّه؛ بمعنى أنّ التدبّر يمكن تَلَمُّسُه، ويمكن تحريكه في إطار العناوين العامّة للسورة أو الآية، دون الدخول في التفاصيل. ففي سورة الإخلاص مثلاً؛ يتحرّك التدبّر مع التوحيد كعنوان عام، ويتفاعل معه بكلّ وجدانه وشعوره، دون الدخول في تفاصيل التوحيد وأقسامه ومعانيه. وفي سورتي الفلق والناس مثلاً؛ يتعاطى التدبّر مع

مفهوم التعوّذ بالله تعالى، واللجوء إليه، والاعتصام والاحتماء به، في قبال طوارق الليل والنهار، وجميع الشرور.

وفي آية " الحمد لله ربّ العالمين " مثلاً؛ ينصبّ التدبّر على مفهوم الحمد والشكر لله تعالى، وكيف يتغلغل في النفس، وتتشبّع به الروح، ليشكّل البناء الداخلي للإنسان المؤمن!. وعلى غرار ذلك يكون التعامل مع آية " إيّاك نعبد وإيّاك نستعين "، فينصبّ جهد المتدبّر على كيفيّة التمثّل بمضمون هذه الاية ومعناها الواضح، ولا يشغل نفسه بالحيثيّات التفصيليّة لتركيب الآية الذي هو شأن المفسّر. وهكذا.

المَعْلَم الخامس: التدبّر والحزن؛ فالتدبّر لا ينفك عن الحزن، وخشوع القلب، والبكاء أحياناً. فيمكن أن يعتبر ذلك معلماً من معالم الواقع التطبيقي للتدبّر، بمعنى أنّ الحزن والخشوع عند قراءة القرآن هو حالة من حالات التدبّر والتأثّر بأجواء القرآن، ويمكن أن يعتبر من المناسبات والحالات المساعدة على التدبّر. قال تعالى: { ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتابَ من قبلُ فطالَ عليهم الأمدُ فقست قلوبُهم وكثيرٌ منهم فاسقون }الحديد/16.

وعن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله): " إنّ القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا ".

وعنه (صلى الله عليه وآله): " إنّي لأعجبُ كيف لا أَشيبُ إذا قرأتُ القرآن ".

وعن الإمام الصادق عليه السلام: " إنّ القرآن نزل بالحزن فقرأه بالحزن ".

وعنه عليه السلام: " ينبغي لمن قرأ القرآن إذا مرّ بآية من القرآن فيها مَسْأَلة أو تخويف أن يسأل عند ذلك خير ما يرجو، ويسأله العافية من النّار ومن العذاب ".

وذكر الفقهاء أنّه: " يجوز تكرار الآية في الفريضة وغيرها، والبكاء. ففي الخبر كان علي بن الحسين عليه السلام إذا قرأ " مالك يوم الدين " يكرّرها حتى يكاد أن يموت. وفي آخر عن موسى بن جعفر عليه السلام عن الرجل يصلّي له أن يقرأَ في الفريضة، فتمرُّ الآيةُ فيها التخويفُ فيبكي ويردّدُ الآية؟، قال عليه السلام: يردّدُ القرآنَ ما شاء، وإن جاءه البكاء فلا بأس ".

- **بين التدبّر والتفكّر:**

مصطلح "التدبّر" في القرآن قريب من مصطلح "التفكر"، ولكنّ الأوّل يكثر استعماله في الآيات القرآنيّة، بينما الثاني يكثر استعماله في الآيات الكونيّة. قال تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) }آل عمران. وإذا تأمّلتَ وجدتَ نتيجةَ كُلٍّ من التدبّر والتفكّر واحدة، ألا وهي: الاتعاظ والاعتبار.

وكما أنّ "التدبّر" ليس عملاً عقليّاً معقّداً، فكذلك "التفكّر"؛ فلا يشترط في الشخص المتفكّر في الآيات الكونيّة أن يكون عالماً بالفيزياء والكيمياء والفلك و... إلخ، بل يحصل ذلك حتّى من عوامّ النّاس. فالكون بما يمثّله من جمال الإبداع، ودقّة النظم، وإحكام الصنعة، وعظمة الخلقة، كفيل بإذعان النفس وإيمانها بعظمة الخالق، وسعة علمة، وغاية حكمته، وجمال صنعه، وكمال تدبيره.

- **لماذا قراءة أخرى؟.**

في ضوء ما ذكرناه من تحليل وتوضيح وقراءة للتدبّر بما هو مصطلح إسلامي أصيل، له معالمه النظريّة والتطبيقيّة الواضحة، والتي أنعكست بوضوح في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة. يتضح أنّ التدبّر الاصطلاحي يختلف عن ما سمعناه خلال محاضرات بهذا الشأن في (هذه الواحة القرآنيّة المباركة) لسماحة الدكتور الفاضل الشيخ محمد العلواني اللواتي حفظه الله تعالى. حيث يمكن تسجيل عدّة فوارق بين القراءة التي طرحناها، والقراءة التي طرحها سماحة الشيخ العلواني.

الفارق الأوّل: يرى سماحته أنّ التدبّر هو آليّةٌ ومنهجٌ لفهم القرآن الكريم وبيان مراداته، ويتبنّى سماحته هذه المنهجيّة في فهم القرآن الكريم وبيان مراداته. والحال أنّ التدبّر حسب فهمنا وقرائتنا ليس منهجاً لفهم القرآن وبيان مراداته، بل هو منهج للتفاعل والتأثّر بالمفاهيم القرآنيّة الواضحة التي لا تحتاج لبيان، كما أوضحنا ذلك.

الفارق الثاني: إنّه حفظه الله يعتبر التدبّر حالة أعمق من التفسير؛ حيث يشبّه التفسير بالسباحة على سطح البحر، بينما يشبّه التدبّر بالغوص في أعماق البحر.

وهذا التحليل والتشبيه للتدبّر لا ينسجم أبداً مع التحليل والتفسير الذي قدّمناه للتدبّر الاصطلاحي. فلا يصحّ أن يسمّى مثل ذلك تدبّراً بالمصطلح القرآني والروائي.

نعم، ربما صدق عليه عنوان التدبّر لغةً. ولكن هذا خلاف ما يفهم من سياق كلام سماحة الشيخ، حيث ذكره في ضمن الحديث عن التدبّر الوارد في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة الذي هو التدبّر المصطلح لا اللغوي.

على كلّ حال؛ فهذا الفهم للتدبّر يجعله أقرب للتفسير أو التأويل منه للتدبّر في المصطلح القرآني والروائي.

ويمكن أن يعبّر عنه بالنظر أو التبصّر، أو التعمّق أو نحو ذلك لا التدبّر المصطلح، فعن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام أنّه قال: " آيات القرآن خزائن العلم، فكلما فتحت خزينة ينبغي لك أن تنظر ما فيها ".

الفارق الثالث: يرى سماحته أنّ التدبّر يتحرك في دائرة المعاني، بينما التفسير يتحرّك في دائرة الألفاظ. وهذا الكلام صحيح نظريّاً، ولكن لم يطبّق بصورة صحيحة في كلامه حفظه الله، فما معنى أنّ التدبّر يتحرّك في دائرة المعنى؟، وما معنى دُبُر المعنى وعَقِبِه؟، فهل المقصود من عَقِبِ المعنى ودُبُرِه تفسيره أم تاويله؟!.

فإن كان الأوّل؛ فالتفسير إنّما يكون للألفاظ لا للمعاني كما اعترف بذلك سماحته، فلا معنى محصّلاً للقول بأنّ التدبّر يتحرّك في دائرة المعاني.

وإن كان الثاني؛ فهو وإن كان معناً مفهوماً، إلّا أنّه بعيد كلّ البعد عن التدبّر المصطلح الوارد في الآيات الكريمة والروايات الشريفة، والذي هو مسؤوليّة جميع المؤمنين بل جميع الناس.

فالصحيح أنّ التدبّر في المصطاح القرآني والروائي، هو النظر في عواقب المعاني، وما يمكن أن تؤول إليه، ولكن من جهة الآثار والنتائج المترتّبة على نفسيّة المتدبّر وسلوكه، لا من جهة المصاديق الواقعيّة للمعاني الذي هو من مختصّات الله تعالى والراسخين في العلم، ولا يمكن أن يكون هو المراد من التدبّر المصطلح.

الفارق الرابع: ذكر سماحته مجموعة أمور تمثّل صفاتاً للقرآن الكريم، واعتبرها مباني للتدبّر، وأنّه يُفترض في المتدبّر أن يسلّم بها ويؤمن بها حتّى يستطيع أن يتدبّر في القرآن.

والصحيح؛ أنّ التدبّر لم يؤخذ فيه شيء من ذلك، فالدعوة القرآنية له مطلقة من كلّ قيد، ولم يؤخذ فيها سوى أن يكون له قلب مفتوح.

4- تعليم القرآن: من مظاهر وأنحاء العلاقة المعرفيّة مع القرآن الكريم؛ هو تعليم مفاهيم القرآن ومعارفه، من خلال تنظيم دروس في تفسير القرآن،

أو جلسات تدارس في التفسير، إمّا بالنحو التجزيئي؛ الذي يدرس التفسير بصورة متتابعة وفق ترتيب السور والآيات. أو بنحوٍ موضوعي؛ يُجْمَعُ خلالَه الآياتُ المشتركة في موضوع معيّن، ويتمّ استعراض التفسير لها للخروج برؤية واضحة ومتكاملة عن الموضوع المعيّن.

وهذا الجهد التعليمي؛ يُفْتَرَضُ أن يمارسه العلماء والمثقّفون ممّن لهم إلمامٌ بالتفاسير المتداولة، فيسعون لبيانها للناس، وربما قدّموها للناس بأساليب توضيحيّة شيّقة.

فلا ينبغي أن يكون همّنا أن ننتج المعرفة القرآنيّة، فإنّ ذلك يحدّد من حركتنا القرآنية، بل ربما أوقعنا في محذور التفسير بالرأي، الذي هو من أخطر المحاذير في دائرة التعاطي المعرفي مع القرآن الكريم.

فهناك معارف قرآنية جاهزة، استخرجها المفسّرون ودوّنوها في كتبهم، وبقي على الآخرين دورُ النشر والتبليغ لهذه المعارف، وإيصالها لأكبر عدد ممكن من أبناء المجتمع. ومن المناسب أن يقترن ذلك بعرضٍ للروايات الشريفة ذات الصلة بالآيات الكريمة، سواءً ما يرتبط منها بتفسير الآيات الكريمة، وبيان المراد منها، أو ما يرتبط ببيان موضوعها وزيادة التوضيح له. ومن الكتب المفيدة في هذا المجال كتاب (المعين في تفسير القرآن المبين) فهو إضافة لبيان المعنى اللغوي للآيات، يستعرض مجموعة من الروايات الشريفة في الموضوعات التي تعالجها الآيات الكريمة، فتكون المعرفة القرآنية ممزوجة بالمعرفة الحديثيّة.

- المحصّلة: ومختصر الفكرة التي أريد تقديمها عن التدبّر الاصطلاحي - لا اللغوي - هي أنّ التدبّر ليس منهجاً علميّاً نظريّاً، بل هو منهج تربويّ تطبيقي.

فالقرآن الكريم عندما يدعو جميع المؤمنين، بل عموم الناس، للتدبّر في آياته، يريد أن يحلق حالةً من التفاعل الروحي والنفسي والفكري والعملي مع آياته، من أجل بناء الكيان الداخلي للإنسان وفق معطيات القرآن الواضحة والكليّة، فهو - أي التتدبّر - منهجيّة عمليّة لتحريك القرآن في حياة الناس، وتفعيل ارتباطهم به عمليّاً.

أمّا المنهجيّة العلميّة لبيان معاني القرآن وكشف مراداته، واستنباط أحكامة؛ فهي التفسير، الذي يمثّل مزيجاً من التدبّر اللغوي، والاستظهار العرفي، والاستدلال العقلي، والبيان النقلي.

السيد مجيد المشعل

2020/11/20م